الجديد في الموجة الثانية من التحالف الدولي ضد الإرهاب:

من الحوار والقوة الناعمة والذكية

إلى اللاحوار والقوة الغاشمة

حين أعلن هانتجتون عن بنوءه "صراع الحضارات" كان جوزيف ناي ومدرسته يطورون مفهوم القوة الناعمة وذلك في نفس الوقت الذي كان دم أهل ا لبلقان وأهل الشيشان وأهل الخليج في الكويت والعراق يسيل في ظل إعادة تشكيل توازنات هذه المناطق في ظل نهاية الحرب الباردة وسقوط الأقنعة الايديولوجية.

وكانت مقولة إعادة تقسيم المنطقة العربية باستخدام الأدوات الثقافية والدينية و المذهبية والقومية قد بدأت تطل بـرؤسها في ظل بداية عملية السلام العربية الإسرائيلية الشاملة . تطل برؤوسها من مراكز التفكير الاستراتيجي الإسرائيلي والغربية بعد أن وضعت ، عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣، لبناتها الفكرية لتنفيذ مشوار المائة ميل في ما عرف حينئذ لبننة أو بلقنة الوطن العربي.

كذلك كان يحيط بكل المناطق وكل أنشطة المؤسسات الدولية الحديث عن الحوارات ومداخلها السلمية لإدارة التسويات للصراعات الممتدة. هكذا كان حال العلاقة بين القوة الناعمة والصلدة والحوارات في إعادة بناء توازنات نهاية القرن العشرين.

وبدأت مرحلة ثانية حين انفجرت البؤرة الثانية للعنف ا لكبير بعد نهاية حرب باردة مع بداية القرن الواحد وعشرين في عقر دار قلعة النموذج الرأسمالي الغربي: الولايات المتحدة في ما عرف بأحداث ٩/١١.

نالت أمريكا نصيبها من الغضب العالمي بعد ما نال USSR نصيبه قبلها بعقد من الزمان.

وبدأت موجة ثانية من الصراعات الإقليمية الدموية بحروب أمريكية سا فرة ومباشرة بعد إن أردوا إلباسها كل اثواب الشرعية سواء في أفغانستان أو العراق . وبقدر كثافة وامتداد بطش القوة العسكرية والاقتصادية الصلدة في هاتين الحالتين وفي حالات أخرى بدرجات أقل (السودان ، الصومال، لبنان،...) بقدر ما لم يشهد العالم زخمًا في الدعوة للحوارات –على كافة أنواعها– مثلما شهد في هذا العقد الأول من الألفية الثالثة، ولذا صعد مفهوم القوة الذكية في هذه المرحلة.

وكان الغرب في عقر داره يتعرض لهجوم الأعمال الإرهابية . فخرج يعتدي على شعوب العالم باسم الدفاع عن النفس والضربات الاستباقية لاقتلاع جذور الإرهاب بالقوة العسكرية، سالكًا

في ذلك نفس درب صن يعته إسرائيل التي م افتأت تسمى المقاومة ضدها في الداخل والخارج إرهاب متناسية بل مسقطه من الاعتبار إرهابها الأصل أي الاحتلال الاستيطاني وقوته العسكرية الوحشية.

وفي عقر دارنا في أوطاننا ا لعربية الإسلامية، وتحت قصف كافة أدوات التدخل الخارجي باسم الحرب العالمية على الإرهاب بقيادة أمريكية، كنا نخوض حربًا فكرية وسياسية من أجل التحول الديمقراطي ومن أجل الدفاع عن الإسلام ، يشهد على ذل ك في كافة أوطاننا إزدواج مسارات الحركات الوطنية الفكرية والسياس ية ضد الاستبداد وضد التبعية . مسار يناقش جدوى هذه الحوارات المفروضة علينا من أعلى ومن الخارج وباجندات مسبقة (لماذا تكرهوننا، وكيف تتغيرون لتتخلصوا من الإرهاب الذي يهدد العالم) ومسار يناضل سياسيًا من أجل الديمقراطية والحريات وحقوق الإنسان وكان المساران السيا سي والفكري متكاملان إلى حد ما وتشارك فيهما كل التيارات الفكرية السياسية.

وكان في القلب من خريطة الاتجاهات في كل من المسارين أمران : الاستراتيجية الأمريكية للحرب على الإرهاب، ووضع الإسلام والمسلمين في النظام الد ولي والدفاع عن الإسلام ضد تشويهه باتهام أهله بالإرهاب "جينيًا وثقافيًا" بسبب انتمائهم لهذا الدين.

وبقدر ما كان هناك اتجاهًا استسلاميًا على المسارين : دفاعًا عن الإسلام بكونه دين السلام مع التطلع للغرب كقبله للديموقراطية والحرية و مع الدعوة إلى الاستنساخ التام للنموذج الغربي بقدر ما كان هناك اتجاهًا يذكر "بالإرهاب الأصل" أي إرهاب السياسات الغربية الظالمة المساندة للنظم المستبدة والفاسدة في أوطاننا حماية لمصالحها وأمن إسرائيل و الذي يضرب كل قوى التغيير وعلى رأسها القوى الإسلامية . كما يطالب هذا الاتجاه –بروافده المختلفة– التمييز بين الأعمال الإرهابية (وجميعها في العقد الأول من الألفية كانت م وجهة لأهداف أجنبية وخارج حدود الأوطان وباسم محاربة الشيطان الأكبر الخارجي) وبين التيارات الإسلامية الأخرى.

بعبارة أخرى في هذه المرحلة لم يكن كل الإسلاميين إرهابين في سلة واحدة وكان التمييز بين القاعدة وغيرها مازال واضحًا سواء من حيث الهدف (الشيطان الأكبر) أو الأدوات. كذلك لم تكن

الولايات المتحدة محل اتفاق أنها المنقذ من الإرهاب وبالقوة العسكرية . فلقد تبلورت الخلافات مع حلفاءها الأوروبين حول جذور الإرهاب وكيفية اقتلاعها وعدم النجاح في ذلك بالوسائل العسكرية فقط. وتقدم خبرة العقد الأول من القرن الوا حد وعشرين تقييمًا لمآل هذه الحالة على ضوء الفشل الأمريكي في أفغانستان والعراق وعلى ضوء اندلاع الانتفاضة الثانية في فلسطين وتبلور المقاومة العسكرية في غزة من جديد. ولم ينته تنظيم القاعدة ولكن تعرض لحالة من اللامركزية والانتشار وتفرعت عن امتدادات جديدة وازدا دت العوامل الطائفية والمذهبية والدينية والقومية وطأة في التأثير على وحدة وتماسك الأوطان والدول. كان الجميع يحذرون إسلاميون وقوميون وناصريون ويساريون وليبراليون من عواقب الحرب الأمريكية على الإرهاب وكان الجميع يتفق أن إسرائيل العدو وأن النظم المستبدة يجب أن تتغير. وكانت الحوارات الوطنية على أشدها في كافة الأوطان بين كافة التيارات عن كيفية تحقيق التغيير ومآلاته . وتصادمت المرجعيات الإسلامية والعلمانية كشأنها عادة ولكن كانت مازالت تبدو أنها في إطار وطني واحد وإ ن اختلفت المنطلقات والمرجعيات والتصورات عن الأدوات والأهداف.

وظلت الأوطان والدول تبدو مستقرة ومتماسكة رغم الفوران والغليان ومؤشرات الخطر على الوحدة وعلى إدارة التعددية سلميًا وديموقراطيًا . وللأسف ظلت الدول القمعية بقواها الأمنية : الشرطية والجيش تعطي الان طباع أنها الحافظة للوحدة والاستقرار والأمن ولو على حساب الحريات والرفاهية، وأنه بدونها ستكون الفوضى، وهي بهذا تكون قد اعترفت صراحة وعلانية أنها فشلت بمؤسساتها العلمانية وجيوشها في إدارة التعددية التي تحولت من ثراء إلى خطر وتهديد نتيجة قمع الجميع إلا من بيده السلطة ويحتكر "وسائل القوة المشروعة" الجيش والشرطة. فلقد كانت الجيوش في قلب حماية النظم ومصدر الرؤساء والقيادات في ظل عسكرة مجتمعاتنا ودولنا. ولقد مرت هذه الجيوش على اختلاف حالاتها ودرجة قوتها، بمراحل في علاقاتها بإسرائيل وأمريكا: سلمًا أو حربًا وكذلك في علاقاتها بالسياسة قربًا أو بعدًا : ولكنها ظلت أداة النظم المتهالكة في "كبت التعدد بكل أنواعه وفي الفشل في بناء دول حديثة من حيث نظم حقوق المواطن والحريات والعدالة وتداول السلطة.

ولهذا كله لم تثمر جهود الإصلاح والتحول الديمقراطي لدينا طوال عقدين من الزمان ما اثمرته في شرق أوروبا وأمريكا اللاتينية.

وفي المرحلة الثالثة مع اندلاع الثورات صعدت الآمال والطموحات ولكن لم تتوافر الرؤى والتصورات التوافقية عن المسارات. ففي حين تمسك طغاه بالاستمرار ولو بتصفيه شعبه بالتدريج وفي حين سقط البعض سلميًا وفي حين سقط البعض بالتدخل العسكري الخارجي وفي حين نجحت بعض المراحل الانتقالية أُسقطِتَ مراحل أخرى بانقلاب ... إلى آخره من تفاصيل حالة الثورات في الأربع سنوات الماضية.

وبغض النظر عن محطات هذه التطورات وتفاعلاتها وهي شديدة التعقيد والتداخل على المستوى المنظومي الأقليمي إلا أن الأكيد **أن الثورات العربية التي تعرضت جميعها للتقييد ثم الاحتواء من أجل إجهاضها، أن هذه الثورات باختلاف أنماطها ومآلاتها تعكس صورتين أساسيتين:**

الصورة الأولى : كشفت آفة الانقسامات عن نفسها في استقطابات مقيتة مدفوعة داخليًا ومحركة أو موظفة من قوى إقليمية وخارجية . ولهذا قال البعض متناسيًا كل الخبرات السابقة على الثورات، أن الثورات مؤامرة لتقسيم المنطقة. إلا أن الثورات كانت هي الاستجابة الفاعلة ضد مشروع الشرق الأوسط الكبير وإعلان رفضه والسعي لإسقاطه والقضاء على أدواته. وفي المقابل فإن الذي مكن للمؤامرة أن تستمر هي الثورات المضادة والانقلابات ومن ساعدهم من نظم متهالكة لم ينلها بعد نصيبها من ثورات شعوبها. فإن البطش في قمع الثورات أو الانقلاب على استحقاقاتها الانتخابية لأنها أتت بفصيل دون آخر، وكذلك التدخلات الخارجية للمراقبة ثم التأثير ثم التدخل، جميعها أوضاع غذت من الانقسامات بل ونشطتها بدرجة غير مسبوقة على حساب ذلك الجزأ من الشعوب الذي أراد إطارًا حرًا تعدديًا عادلاً للجميع.

الصورة الثانية: تعكس تهاوى الحدود بين الإقليمي والعالمي في الدعوة للحرب على الإرهاب وإذا كانت المرحلة منذ ٢٠٠١ قد جرت تحت شعار الاستراتيجية الأمريكية العالمية للحرب على الإرهاب فإن المرحلة الحالية من الثورات المضادة والانقلابات، يديرها الطغاة الإقليميون الذين

رفضوا الثورات وتآمروا عليها لإجهاضها تحت عنوان "الحرب على الإرهاب أيضًا ". آملين أن تجدد القوى الغربية مخططاتها ضد "الإرهاب" وتجعل حربها. وكأنها هذه المرة فإن التمايز عن الحرب الأولى على الإرهاب متعدد الجوانب . فإن "الإرهاب" الحالي يستهدف بالأساس النظم الفاسدة العربية ويجري على أراضنا فيصيب بويلاته شعوبنا . ولهذا فهو ليس "إرهابًا" بالمعنى التقليدي. والأهم أنه لا صوت إلا صوت آلة الحرب والقوة العسكرية يستخدمها الطغاة ضد الثوار والمعارضين بالإرهاب. ولا حديث عن حوارات أو مصالحات جدية تحتاج هذه الحوارات.

ومن ثم فإن هذه الموجة من الحرب على الإرهاب انطلقت من ظهرانينا، وكجزء ركين في الصراع بين الثورات والثورات المضادة. وسعي الطغاة الإقليمية لتعبئة التدخل الخارجي المباشر.

بل يبدو الأمر كما لو كان هناك فسطاطين فقط، فسطاط يقوده الطغاة باسم الأمن والاستقرار وخطر "الإسلاميين" على الأوطان وأنهم الذين سرقوا الثورات وحولوها إلى مؤامرات وخيانة، وأن الطغاه هم الذين انقذوا الشعوب . والفسطاط الآخر هو يضم كل من ظل يدافع عن الثورات الشعبية والسلمية ومن أجل دولة القانون وحقوق الإنسان والتعددية والهوية.

وللأسف يخفت صوت ذلك الفسطاط لا يعلو الآن أمام صخب أذرع الثورات المضادة والانقلابات وحلفاءهم في الغرب وحرصهم على التركيز على الخيارات المسلحة الصاعدة التي يشنون لبناء تحالف دولي في مواجهتها باسم محاربة الإرهاب.

إن حلف الطغاة في الداخل والخارج لا يجد سبيلاً ولم يجد سبيلاً أبدًا من قبل الا القوة العسكرية وتجديد هياكلها من جديد لتقمع ما بقى من الثورات، كما أغلق الحوار "حول الإسلام والإسلاميين" حيث يدعى أنه لا حركية إسلامية إلا أرهابية ولا إسلام إلا إسلام مؤسسات الدولة وأفرادها. في حين أن الحوارات خلال "الحرب الأمريكية على الإرهاب في العقد الأول من الألفية كانت تحاول توظيف التمايز بين التيارات السلمية الإسلامية وبين التيارات الراديكالية. وتحاول أن تبرر وتفسر استخدام القوة العسكري والعدوان بالأدوات الفكرية أيضًا.

إن الثورات كانت صرخة ضد الداء والعرض . وخيانة الثورات كانت هي المؤامرة التي أكدت حقيقة أسباب الداء وأعراضه بل وأهدافه : وأد الديمقراطية والإسلامية. أنا لا أتحدث حديث

المؤامرة –الداخلية والخارجية هذه المرة، فلم يعد هناك مؤامرات خارجية فقط أنها جميعها تتم بيد من الداخل هكذا أكدت خ برة خيانة الثورات والتصدي لها بأ دوات في الداخل تتآمر مع الخارج الذي يرفض جملة وتفصيلاً التغيير في المنطقة . فلقد أدعوا من قبل كثيرًا أننا تحتاج التغيير لنصبح على شاكلتهم قلبًا وقالبًا. وما تنوء به المنطقة الآن ليس إلا دليلاً آخر على استمرار فشل فرض التغيير علينا من الخارج ولكن الثمن كبير جدًا تدفعه الشعوب أيًا كان اصطفافها في واحد من الفسطاطين. أفلا تتدبرون وتتعظون أن سحركم دائمًا أيها الطغاة ينقلب عليكم؟ وهذا ما جنته براقش على نفسها.

والحمد لله

٢٠١٤/٩/٣